قصة كردية

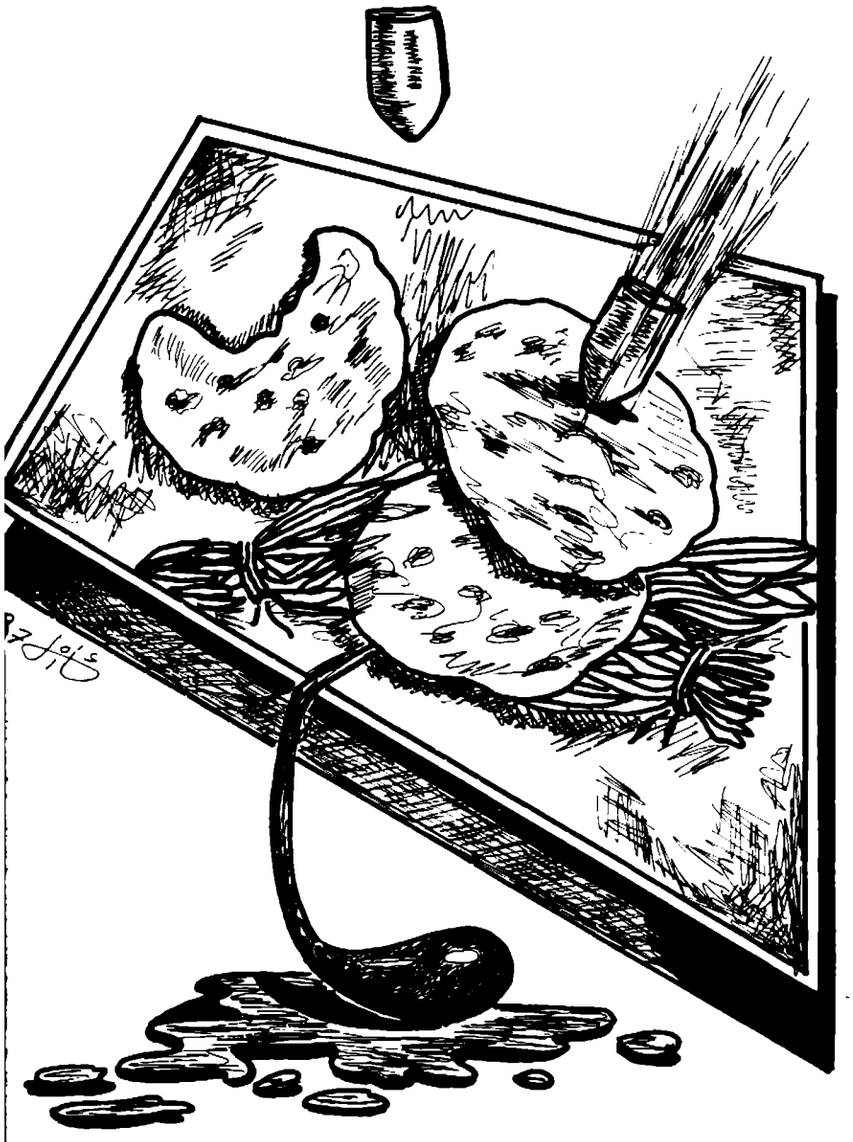

الخبز والكرات المضرج بالدم

قصة : حسين عارف

ترجمة : محمد صابر محمود

رمى بآخر حمل من الحنطة ، من على كاهله فوق الأخريات . . وبعد ان عالجه ، بزحزحته قليلا ، فاخذ وضعيته المستقيمة الملائمة ، انتزع أكافه[1] من كتفيه ، فرماه ببرود ، ودونما مبالاة في احدى زوايا الخان ، ثم شرع ينفض عن جسمه ، وعن ملابسه ما تراكم عليهما من غبار . واذ تمَّ له ذلك اخرج منديله الفضفاض الشبيه بالشملة[2] ، فأخذ ينظف به – ولفترة غير قصيرة من الوقت – رأسه ، وسحنته ، ومن ثم كتفيه ، وجوانب من رقبته . .

واذ فرغ من كل ذلك دسّه ثانيةً في صديرة حضنه . . عندئذ وقف صامتاً امام الحاج (عبدول) ، صاحب خان العلف .

والحاج بدوره ، سرعان مانا وله ورقة من فئة الربع دينار ، مردفا اياها بقوله : «هيا ، اوصد لي ابواب الدكاكين من جانبك ايضا» . . كان للحاج افضال كثيرة عليه ، حيث انه كثيرا ما اغاثه ، ومدّ اليه يد العون ، والمساعدة ، في اوقات الشدة ، والضيق . . اعاد مصاريع الابواب الى الاسفل ، ومن ثم ثبت عليها الاقفال مبتهجا ، مسرورا ، ثم بادره قائلا :

– هل لديكم أمرٌ اخر تتفضلون به يا سيدي ؟ قال الحاج في اجابته :

– لا يا بني . . ارجو لك دوام العافية . . تفضل في امان الله . .

عندئذٍ ودّع الحاج ، فتوجه قاصدا السوق . هناك ابتاع بخمسين فلسا ستة اقراص من الخبز البارد المعروض على السلال ، ثُمّ مرَّ بأحد دكاكين بائعي الخضار ، فآنتقىٰ ثلاث باقاتٍ من الكرّاث بعشرة فلوس ، بعدها اخذ سمته صوب البيت .

في تلك الامسية كان (معروف) الحمال ، ممتلئاً غبطةً ، وراحة بال . . حيث أنّ دخله لذلك النهار كان في حدود ثلاثة ارباع الدينار . . فضلا عن أن دخله اليومي طيلة ايام الاسبوع الفائت ، لم يكن قد هبط عن مبلغ نصف الدينار بأيّ حالٍ من الاحوال . . وفي الحقيقة ان هذا كان امراً نادر الحدوث خلال هذه الاشهر الاخيرة ، لأنّه إبّان تلك الفترة ، قد صادف ، ومضىٰ اياماً ، كان خلالها ، إمّا أنّه لم يكن ليحصل على شيءٍ مطلقاً ، أو أنّ دخله لم يكن ليتجاوز الثلاثة او الاربعة دراهم . . والذي كان بالكاد يكفيه لسدّ رمقه ، ومعيشة عائلة . .

لذا تراه الان يحدّث نفسه بشيءٍ من الأطمئنان ، اثناء ماكان يسير ، فيقول : «مع ما تبقىٰ لديّ من دخل هذا اليوم ، يبلغ ما عندي ثلاثة دنانير وربع الدينار . . الان اذن بوسعي اكساء الأطفال شيئاً ما بملابس جديدة ، لا سيّما وأن الشتاء على الأبواب . . حيث أنّ دينارا ، ونصف الدينار يكفي لأكسائهم . . أمّا أنا ، فلعلّني أستطيع شراء معطف مستعمل من مبيعات (الفردة) . . عمّر الله بيتَ مَنْ جاء بملبوسات (اللنكة) الى الوجود . . حقاً قد تعثر فيها على نماذج ، لو فصّلتها تفصالاً ، لكلّفتك مبالغ باهضة جداً . . أعزّهم الله ، ورفع من مقامهم . . غداً سوف انقُدُ أمَّ البنين مبلغ دينارٍ ونصف ، لكي تذهب ، وتقتني ما تشاء من الثياب الدافئة المتينة ، لها ، وللاطفال ايضاً . . أمّا أنا ، فوجود على الدوام في السوق . .

سوف اترصّد معطفاً من ذوات القماش السميك ، المبطّن بالفرو . . قسماً بالله ، اكاد اجزم ، بأنّني لو دفعت لبائعيه اربعة عشر درهماً ، أو قُلْ خمسة عشر ، فلسوف يكونون ممتنّين جداً ، وشاكرين لي ايضا . . حينذاك ، فليُسقط الشتاءُ ما شاء له أنْ يُسقط من صقيعه ، وثلوجه ، وامطاره ، على أمّ رأسي . .» .

أحدُ معارفه ممّن كان حمّالاً مثله ، صادف أنْ مرّ بجانبه ، فحيّاه بتحيّة حارّة . . انقطعت علىٰ اثرها سلسلة تخيّلاته ، فردّ عليه بأحسن منها . . وما لبث أن انتقل رويداً رويداً ، فيما هو مستمر في سيره – الى نفس الحديث : –

«لو صحّ تقديري ، فسوف يفضُلُ ممّا عندي مقدار دينار واحد . . وحسبما أظنّ ، بأنّني لو آتبعتُ بقيمته ذخيرةً لفصل الشتاء ، فسيكون ذلك أفضل من أيّ شيءٍ آخر . . سوف أبتاع بقيمته عدساً ، وحمصاً و . . لا . . لو اشتري به وزنةً من القمح ، فأطحنها ، ومن ثم اودعها البيت لوقت الشدائد ،

والضيق ، لهو أحسن بكثير . . من يدري ؟ ! ليس من المستبعد أن يتعقّد الوضع غداً ، ويتفجّر ثانيةً ! ! . .» . في الواقع ان معروفا الحمّال لم يكن مخطئاً في تشاؤمه هذا ، لأن الحالة في المدينة كانت على الدوام عُرضةً لتغييرات ، وتقلبات لا تخطر ببال اي انسان ، ولم يكن بمقدور اي شخصٍ انْ يظلّ بمنأىً عن كوارثها ، وويلاتها المفاجئة . . ناهيك عن مصائبها ، ومحنها ، ومآسيها ، غير المتوقّعة .

واذ بمراجعة آنية أعاد أمام ناظريه ، شريط الاحداث السابقة بمجملها ، والتي حدثت داخل المدينة ، وأعاد في الوقت نفسه الى ذاكرته ما قاساه من عذاب ، وما عاناه من جوع ، وحرمان ، والتي ذاق مرارتها نتيجةً لتلك الاحداث ، شعر بشيءٍ من الاطمئنان ، فقال في نفسه : «حينما تتوافر لديّ تلك الوزنة من الطحين في البيت ، فإنني في هذه المرّة على الاقل ، فيما لو تدهورتِ الحالةُ ، وانصدع الوضع – لا سامح الله – ألوذ بالبيت ، ولا أُحرّك ساكناً . . وحتى لو اعتشنا على الخبز اليابس ، فسوف نتمكن من تمضية ايامنا ، الى ان يفتح الله علينا ابواب رحمته .لقد أثار الكلام عن التصدع ، والتدهور ، وما يجلبانه من المصائب ، والويلات ، والكوارث الرهيبة جملة من الاسئلة في تلافيف مخّه .

قال محدثاً نفسه : «حسناً . . علامَ يحدث كلّ هذا ؟ ! . . . هذه النغمات الناشزة ، الى متى ؟ ! . . واللهِ ، إن رأسي لينتفخ من مثل هذه الاعمال . . اذا بك تُفاجأ ، وعلى غفلة منك يتدهور الوضع . . . تعمّ الفوضىٰ ، ويود الهرج ، والمرج داخل المدينة . . تلعلع اصوات الاطلاقات في كلّ حدب ، وصوب . .

وفي آخر المطاف حين تهدأ الزوبعة ، ترىٰ المدينةَ بأكملها ، وقد ران عليها صمت مطبق ، وكأنها مدينة الموتىٰ . . أو أنّك تسمع بأنّ ثمّة جُثثاً في البيت الفلاني ، قد تضرّجت بدمائها ، وفارقت الحياة ! ! . . يالَلْغرابة ! ! . . والله إنه لأمرٌ غريب ! ! . . علامَ يحدث هذا ، ولأيّ سبب ؟ ! ! .» .

وفيما بعد . وبعد أن يُشغل مخّه قليلاً . ويفكر فيه مليّاً . كان يردّد مع نفسه بضجر . ويقول : «ليس هذا عبثاً ! ! . . لا بدّ أن هنالك شيئاً ما ! ! . . لكنني في الحقيقة لا أفهمه . . إنني لست أفهم ما مغزاه . . ولا أُدرك كنهه ! ! . .» .

واذ فكر فيه . وفكر . ومن ثَمّ أمعن في التفكير . ولم يتوصل الىٰ نتيجةٍ ما . ترك الكلام عنه جانباً . فسرح تفكيره في البيت . . في زوجته . واطفاله الصغار فقال : «اليس يكفيني من كل هذا . أنّ الله جلّ جلاله . قد أنعم عليّ بزوجة حاذقة . وبثلاثة أطفال صغار ذوي وجوه ناضرة . ممتلئين صحةً . وعافيةً . والذين يمنحون حياتي ضياءاً . ونوراً . ويمدّونني بالحيوية . والقوة اللازمة لمواصلة هذا الكدح الذي يشبه كدح (فرهاد[٣]) ؟ ! . .

إذن أنا مالي . ولهذا القيل ، والقال ؟ ! ! لقد قيل : دعِ الخبز للخبّاز ، واللحم للجزّار ! . . . يبدو أنّ اولئك الذين يسلكون ذلك الدرب الملغوم بالتصدّع ، لا بدّ أن يكونوا من غير المتزوجين ، وليس بذمتهم اطفال صغار ، وإلاّ فكيف يجدون في أنفسهم الجرأة على المضي في هذا الطريق ؟ ! . .»

وفيما هو منشغل بترديد هذه الأقوال ، قطع مسافةً أخرىٰ . . كان واضعاً أقراص الخبز الستة مع الباقات الثلاث من الكرّاث تحت إبطه ، مطبقاً عليها بقوّة . . من دون أن يحسّ بنفسه مدّ يده ، فأقتطع من الخبز قطعة ، فأودعها فاه . . مضغها برهة من الوقت ، كي يتلذّذ بها ، ثم يبتلعها بشهية . . أثارت فيه الأحساس بالجوع ، فقال في نفسه : «تُرىٰ ، لو أن أمّ الأولاد قد طبخت لنا اليوم حساءاً ساخناً ، سائغاً ، وإذ أعود الآن ، فأملأ منه بطني بمنتهىٰ الشهيّة ، والتلذّذ ! ! . . ياليت ذلك الحساء كان بدوره من البرغل الريّان مثل الهريسة ! ! . . أنا ادري ، بأنّ حساء البرغل الغليظ المعتبر ، إنما هو ذلك النوع المطبوخ باللحم الدسم ! . . . غير انني اعلم ايضا ، بأننا اليوم مثل معظم الايام الاخرى ، لم يكن لدينا في البيت لحم ، سواءاً أكان دسماً ، أو من غير دسم ! ! . . لكنني

مع هذا راضٍ به . . وحتىٰ لو كان مطبوخاً بالسمن وحده ، فأنني ايضا قانع . وراضٍ ، على أن يكون مطبوخاً طبخاً جيداً ، ويسيل مرقه ، ودسمه كالهريسة ، وشريطة ان يكون ريّاناً .

ما اطيبه من طعام ! ! . . وبخاصة حينما يكون مع الخبز ، والكراث اللذين تحت ابطي .

يا لَه من طعام لذيذ ، شهيّ ! ! . . ياله من طعام لذيذ شهيّ ! ! .

في هذه اللحظة بالذات ، وعلى مقربة جداً من (معروف) الحمّال ، وقعتِ الواقعة ، وكأنّ الارض قد انشقت لتبتلع مَنْ عليها . . تدهور الوضع بشكل فظيع ، ومُربك ! ! . . في البداية : لعلعت ثلاث اطلاقات متوالية . . اردفتها عدة صليات . . ثمّ بدأت تُسمع أصوات كالقرقعة .

لقد حدثت هذه كلها خلال بضع لحظات . . غير أنّ معروفا المسكين ، ومن الطلقة الاولى ، مثل بقية المرات السابقة ، صعقته لذعةٌ في صميم فؤاده ، ومن ثَمّ اخترقتْ احشاءه شرارة . . كما وأنه كمثل جميع المرات السابقة ، اندفع الى الامام ، كي يُسرع ، وينطلق ، ولكي يحاول الهرب ، والافلات بكل ما لديه من قوّة ، وينقذ نفسه ، من دون ان يلتفت حواليه مطلقا ، ليعلم ما الذي يجري ! ! . . الا أن حظ (معروف) الحمّال المسكين ، العاثر لم يسعفه في الافلات ، فلم يتمكن من الخلاص رغم يقظته المتناهية ، وعدوه السريع ! ! . . لقد وقع المحظور ، وانتهى كل شيْ ! ! . . اذ ان الطلقة الطائشة كانت اسرع منه بكثير . . حيث انه في و قت مبكر جدا كانت هنالك طلقة طائشة قاسية ، قد فأجأته ، فأصابت منه مقتلا عند منتصف الظَهْر . . ثم انها ، وبجرأة متناهية كانت غائرةً في اعماق قلبه ! . .

في تلك اللحظة أحسّ فقط بلذعة من الالم الحاد ، مثل حدّ الموسى ، اضرمت في نياط قلبه لهيبا من النار . . أما بعد ذلك ، فانه لم يحس بأي شيْ . . حتى أنه لم يذق ولو ذرة من الألم أيضا ! ! . .

سقط منكبا على وجهه . . ومن دون أن تنتفض جارحة من جوارحه ، خمد في مكانه . . لفظ انفاسه الاخيرة . . نعم . . كيفما اتحدث اليكم هكذا كان . . لقد مات ! ! . . أمّا الاقراص الستة من الخبز ، والباقات الثلاث من الكراث التي كانت تحت ابطه ، فقد شكلت قطراتٌ من الدم الاحمر الفاتح ، مساربها بين ثناياها ، فشوّهتْ من صورتها ، وملامحها الى حدٍّ بعيد .

* * *

اما في البيت ، فمثلما كان (معروف) المسكين يمني نفسه ، فإن زوجته المخلصة الوفية ، كانت طابخةً حساءاً غليظاً من البرغل ، ذات طعم لذيذ جداً ! . . . اطفالها الصغار الثلاثة بطلعاتهم البهيّة ، كانوا يحومون بأستمرار حول قدر البرغل . . يستعجلون والدتهم كي تصبّ لهم الطعام . . في حين كانت الوالدة تحاول ان تخدعهم ، تارةً بالحيل ، واخرى بالتهديد ، والوعيد ، وثالثة بالمطادرة ، على امل ان يعود ابوهم بين لحظة ، واخرى وحين يجتمع شمل الاسرة ، عندئذٍ يهنأ الجميع بتناول ما في القدر من طبيخ البرغل .

غير ان الشمس آلت الى الغروب وراء هامات التلول . . والمؤذن اذن لصلاة المغرب . . اسدل الظلام سجوفه على الكون ، ولم يبن ثمة من اثر للأب الحبيب . . .

كان الاب الحبيب جثةً هامدة ، لا روح فيها ، مضرجةً بالدماء . . مرميةً في الجناح المخصص للموتى ، في المستشفى الواقع شمال المدينة . . . بأهمالٍ مفرط كانت جثته مرميةً هناك .

• تأريخ القصة : ١٩٦٢
تأريخ الترجمة : ١٩٨٧/٣/١٠
هذه القصة منشورة في مجلة (بيان) العدد (٢) لشهر شباط من سنة ١٩٧٠ .

الهامش •

١ – الأكاف : البَرذعة ، برذعة الحمّال . أو البردعة .
٢ – الشملة : كساء واسع يُشتمل به .
٣ – كدح فرهاد : يُقصد به الجهد المُضني ، والكدّ المتواصل الذي يذهب هدرا . نسبةً إلى (فرهاد) بطل الاسطورة الخالد والذي ذهبت جهوده كلها ادراج الرياح .